باحثة البادية

المرأة . المسلمة . المصرية . الكاتبة . الناقدة . المصلحة

(١)

كيف عرفتها

في مثل هذا الشهر (يناير) منذ سنوات خمس اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الاولى . كانت تقضي فصل الشتاء في حلوان وقد دعتني اليها على غير معرفة سابقة سوى معرفة القلم بعد أن تبادلتُ وإياها بعض الرسائل في الصحف السيارة . دعتني على اثر رثائي ساعة فقدتها يومئذ فكتبت تقولُ : « إني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثيها بحرقة جئت لأمسح دموعك لأني أحبُّ دائماً أن امسح دمعة المحزون . تعالي اليَّ لتأخذيها فانها احسنت بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك وتعارفنا . عثرتِ عليَّ وعثرتُ عليها لتؤكد لك انك وجدت « الصديقة التي لا تحزن » (*)

ترى ما الذي دفعها الى ذلك ؟ أهي النفس العليمة التي لا يفوتها سرٌّ من الاسرار ذكرتْ أنهُ قدّر عليَّ ان احمل القلم يوماً لابكي المرأة الجذابة واستخرج امثولة من كتابات المرأة الخالدة ؟

ذهبتُ اليها والغروب يضرم ناره في قلب الافق والسحب قد انقلبت هنا طيناً وهناك انواراً وهنالك ألواناً . اي نفس لا ترتعش اغتباطاً امام جلال الغروب ؟ والغروب في مصر ابرع جمالاً منهُ في اي قطر آخر وهو يبرز على ابدع ما يكون للسائر في قطار حلوان . مشهدٌ رائعٌ لا ينساه حياتهُ من رآهُ مرةً واحدةً . فيهِ تبدو الاهرام كأنها ما تحجّر من فؤاد الايام وبُعدُها في اطراف الافق يكسبها جمالاً غريباً شفافاً كجمال الاحلام !

على ان اغتباطي بمنظر الغروب في ذياك المساء لم يكن ليلهيني عما ينتظرني من جديد ولا ليحبس عن ذهني اسئلةً تتعاقب على فكر المرء قبيل اجتماعه

(*) « الساعة المفقودة » . نشرت في المحروسة

بشخص غريب. اذا نحن مِلنا الى الغريب وتميل عنهُ في آنٍ واحد واذا دنت لحظةُ موعدٍ ضُرب بينهُ وبيننا لمرة الاولى فاننا لا نفك متسائلين على غير ارادةٍ (وغالباً على غير معرفة) منا: «تُرى كيف هو؟ على اي قرار يوقّع نغمة صوتهِ والى اي الالوان يقرب لون عينيهِ؟ كيف يبتسم ويتكلم ويتحرك؟ بل كيف يفتكر واي الافكار تستغلب عليهِ وعلى اي الاساليب تتكوّن الفكرةُ في خاطرهِ؟ تُرى هل يتفاهم منا الروحان بلغتهما المختلفة عن لغة الشفاه الاصطلاحية ام نحن الساعة ملتقيان ليعلم كلٌّ منا اننا لسنا من وطن معنويٍّ واحد وان بين مزاجينا هوةً لا يزيدها التعارف الا اتساعاً؟»

اسئلة انما ينحصر الجواب عنها جميعاً في النظرة الاولى التي يتبادلها الغريبان رجلين كانا او امرأتين او رجلاً وامرأةً او خادماً ومخدوماً او نظيراً ونظيراً او كبيراً وصغيراً. وتلك النظرة تُسفر دائماً عن احدى عاطفتين اثنتين تتفاوت من كلٍّ منهما الدرجات: فإما انجذابٌ واما تنفُّر. والانجذابُ ميل والتنفُّر نفور

كنتُ اتدرّجُ من هذه الاسئلة الى غامض المعاني التي يحاولُ علماء النفس استكناهها واردفها بهذا السؤال الواضح: «أهذه المرأة التي سأصافحها بعد هنيهة هي هي الباحثة التي تنشر على الناس افكارها. ام صدق الزاعمون ان ليس لها من فصولها الا التوقيع كما هي الحال عند بعض السيدات الشرقيات اللاتي تعمّدن التظاهر بالتفكير والتحبير؟»

والجواب عن مثل هذا السؤال قد يظهر في نظرةٍ واحدةٍ او بسمةٍ او حركةٍ يأتيها الغريب فيستجلي منها اللبيب حياة ذلك الغريب وقواهُ الخفية وما يمكنهُ القيام بهِ من الاعمال. هذا على شرط ان يكون الاثنان من درجةٍ معنوية واحدة او "attuned" كما يقول الانجليز

***

وصلتُ اليها وقد تزركش رداء الليل بوشيٍ الكواكب. ثم نشرت في الغد وصف زيارتي في احدى الصحف الفرنساوية(١) فاستميح الآن بعض ما جاء في ذلك المقال لاني كتبتهُ تحت تأثير المقابلة الاولى. وهاك وصف غرفة الاستقبال:

(١) نشرت في جريدة «الوجوه» الفرنسوية بعنوان "Musulmans d'Aujourd'hui"

« قضينا ساعة ونيفاً في غرفة الاستقبال . واللون الغالب في تلك الغرفة هو الاحمر القاني تتخلله نقوش خضراء فستقية وشريط من الوان اخرى تبدو واهية الخطوط تحت نور الكهرباء . ولم يكن ثمة ما يخبر عن عبوس الحجاب الاسلامي في تلك « الفيلا » الاوربية بين اثاث دقيقة الصنعة ومقاعد فصلت على احدث طرز مع ما تنثر على الطاولات النضيدة القوائم من الاشياء الفنية الصغيرة التي لا اسم لها وهي من صنع عمال الغرب أو من قلدهم من عمال الشرق الحاذقين

كان هتافها الاوّل هتاف ترحيب وكلمتها الاخيرة كلمة حبّ واستغرقت الوقت بين طرفي الزيارة مناقشة ودية في بعض ما عالجته الباحثة من الموضوعات كتعليم البنات والحجاب والسفور . وكانت تحدّثني بصوت أغنّ الرنين تملأه طمأنينة الواثق ممّا يقول المعتقد بصلاح فكره العالم ان آراءه مفيدة كلّ الفائدة لو كان لها الناس تابعين . واذا وجدت الكلمة العامية ركيكة اذا ما عبّر بها عن بعض المعاني استعملت الكلمة اللغوية مكانها بنطق عربيّ فصيح مستشهدة بأبيات شهيرة وحكم سائرة تعزيزاً لآرائها وعلى وجهها هيئة المحقق الجاد وفي عينيها نظرة بعيدة . وان نحن على هذه الحال واذا بقريبة لها قد هبطت علينا من الصعيد على غير انتظار . وكانت باحثة البادية سبقت وقالت لي حين وصولي : « رغب بعض صديقاتي في المجيء للتعرّف بك على اني اردت ان نكون وحدنا في اجتماعنا الاول »

ولكنها لم تبد انزعاجاً بل ظهر السرور في وجهها وتحوّلت المرأة المفكرة دفعة واحدة امرأة ضحاكة كأنما لم تكن هي التي كانت منذ هنيهة تستشهد بالمعري والمتنبي . وقد ذكرت ذلك في مقالي الفرنساوي :

« جاءت قريبتها من الفيوم فأخذتا تتكلمان عن اشياء يعرفانها وتهمهما معاً . فذكرتا الاقارب والاصدقاء والصديقات والجارات والمعارف وهما تحلقان تارة بالله وطوراً بالنبي محمد مشتركتين في الضحك والتكيت بين جملة واخرى . الزائرة تحدث عن الديار والباحثة تستزيدها من التفصيلات عن نساء الحي والمواشي والخياطة المصدورة والحي المتفشية في البلد . ثم اتفقتا في الثناء على البقرة الحلوب وهبط صوتها الى قرار الاسف لذكر البقرة الصغيرة المتوفاة في الاسبوع السابق . فقلت وقد اسفت لاسفها :

— « أماتت تلك البقرة المسكينة ؟ »

اجابت باحثة البادية : « ماتت والله ! وكنت احبها كثير قوي »

ولكن لا يغرنا هذا الانقلاب السريع من جليل المعاني الى تافهها ولا تخدعنا هذه الضحكة الشبيهة بضحكة فتيات المدارس . ان لهذه المرأة كما لكلّ من

الافراد النوابغ شخصيات متعددات تظهر كلٌّ منها في حينها . وهاك وصف ضحكتها في المقال الفرنساوي السابق ذكرهُ :

« انها تضحك بسرعة وسهولة وفي صوتها رنين كرنين أصوات الاطفال . تضحك بكل قواها كمن يضحك من قلبه . يخالطه بعد ضحكه الكآبة ولم تنزل بساحته وطأة الهموم . وما اشد ما يسر السامع بهذه الضحكة المفرغة صبابة وذكاء . ولولا ان حيالات الفكر والكآبة تتمايل على جبهتها السوداء لقلت ان المرء أمام امرأة ذاقت طعوم اللوعة والالم ! . . . »

* * *

نعم انها التاعت وتألمت . أقول ذلك وان كنتُ لم أرها يوماً الاَّ بين مظاهر السعادة والهناء . بل لم أقابلها مرة الاَّ وهي صبيحةُ الوجه طلقة المحيا براقة العينين والبسمةُ تلعبُ على شفتيها . لكنَّ هذه كلها ستائر تسدلُ على حركات الحياة الحقيقية حاجبةً عن النواظر معانيها العميقة . وهل في وسع من ذاق مرارة الفكر وحلاوتهُ ان يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصدهُ البشر ؟ واذا فرضنا انهُ حاز السعادة على ذلك القياس المألوف، أتكفي هذه السعادةُ الاصطلاحية لحمايتهِ من طيب الألم النفسي ؟ كلاَّ ثم كلاَّ !

ولكن لا ننقمنَّ على الالم فهو منذي الذكاء ومهذّب الشعور ومنبّه الادراك الى معان جمة وأساليب فكرية كثيرة . ان صاحب العواطف القوية شقيٌّ اذا ما ذكرنا أنَّ هذه العواطف تعذبهُ في كل حين وتظل هامةً لهُ بالشكوى حتى في أعذب ما ينالهُ من لحظات السعادة النادرة . لكنَّ هذا العذاب بعينه هو ممزّقُ غشاءَ الجهل والاثانية عن بصر فريسته وهو مستنزل الوحي على فؤاد تهشتهُ براثنهُ حتى ادمتهُ . هو مفجرٌ ينابيع النهى . هو يعطي القلم قوة تبدع من الكلام سيوفاً وبروقاً ويجعل اللسان بلاغةً تملك القلب لانها تخاطبه مباشرةً بلا وسيط . وماذا عسى ينفع الحديثُ ان لم يكن مصدرهُ القلب وهي قيمةُ الاصلاح ان لم يكن ناشئاً عن ادراك تكوّن ليس في العقل وحده بل في العواطف المحرقة وما تنبهُ اليهِ من احتياج كثير ؟ ونظرة الكاتب ان يطلَّ فيها خيال القلب المتوجع ليست الاَّ بالنظرة الباردة القاصرة التي لا تتعدى الى ما وراء قشرة الظواهر ويظلُّ باب النفس باب الحقيقة امامها مغلقاً مجهولاً

إنَّ مزاج باحثة البادية العصبي الصفراوي وجسمها الناعي وقوة عواطفها

وحدة ذكائها — كل ذلك كان مشتركاً في تكوين طبيعتها السريعة الانفعال وواضعاً فيها قابلية شديدة للالم واستعداداً كبيراً لمشاهدة الاشياء والحوادث من وراء غشاء قاتم . اقرأ كلّ ما كتبتهُ تجد انيناً متواصلاً يخترقهُ من اوّلهِ الى آخرهِ . وذلك الانين الذي يكاد يكون ركزاً ينقلبُ ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً

هذا المزاج النسائي وهذه الذاتية الادبية وهذه الكاتبة التي لم تدوّن أفكارها (على ما يظهر لي من لهجة فصولها) الاّ تحت التأثير وفي ساعة الانفعال هي ما اقصد درسهُ في هذا البحث . وقد قسمتُ بحثي هذا الى اجزاء ستة هي : المرأة . والمسلمة . والمصرية . والكاتبة . والناقدة . والمصلحة لان في هذا التقسيم تسهيلاً كبيراً لتفصيل الصفات الادبية والمميزات الكتابية . وسنرى في الفصول الآتية كيف تبرزُ « الباحثة » قوية الشخصية في كلّ جزء من هذه الاجزاء ولنا من كتاباتها ما يسندُ اليهِ الرأي ويستخرجُ منهُ التعليل . بل لنا منها ما يبعث بالنور الظاهر الى تلك الصفحات التي كُتبت عن البيئة المصرية ولها . فيمكننا ان نقدر باحثة البادية قدرها ونحب من وراء حجب الموت تلك الذاتية النادرة التي مرّت في الحياة كحلم جميل

أعترفُ بأني في حاجة الى بعض المجاهدة لأتغلّب على نفسي مبعدةً من امام ناظريّ خيالها البسّام ومحاولةً نسيان المرأة كما عرفتُها كيلا اتأثر الاّ بفكر الكاتبة المنشور على الصفحات البيضاء خطوطاً سوداء . غير اني اعودُ فاقول انّ التأثر بمعرفة المرء الشخصية ليس بالامر المذموم بل هو غزير الفائدة . لانّ الذين يعرفون كاتباً خارج فصولهِ يستعينون بتلك المعرفة على قدر تلك الفصول ويستخرجون من احاديثهِ الشفاهية ما يؤيّد اقوالهُ الكتابية ويعززها . واني لشاكرة « للمقتطف » اقتراحهُ . فهو الذي اوحى اليّ كتابة ما اراهُ الآن عليّ واجباً مقدّساً

فلتحضر الروح العزيزة جلساتي اكون فيها وحدي منفردة للبحث في آرائها واستخلاص درر معانيها . ولتقد يدها الروحيةُ القادرةُ يدي الجسدية الحائرة لاثبت ما تريد اثباتهُ . ولتنر حكمتها النورانية المكتسبةُ من ديار الخلود فكري الراغب في ادراك ما تعمدتهُ من المقاصد والساعي في تحديد غاية قُصوى رمت اليها وهي ترى فيها كلّ الخير لاصلاح الشؤون !

(مي)